

المرأة اليونانية هذا المخلوق الضعيف  
بين الموروث الحضارى وعلماء الطب

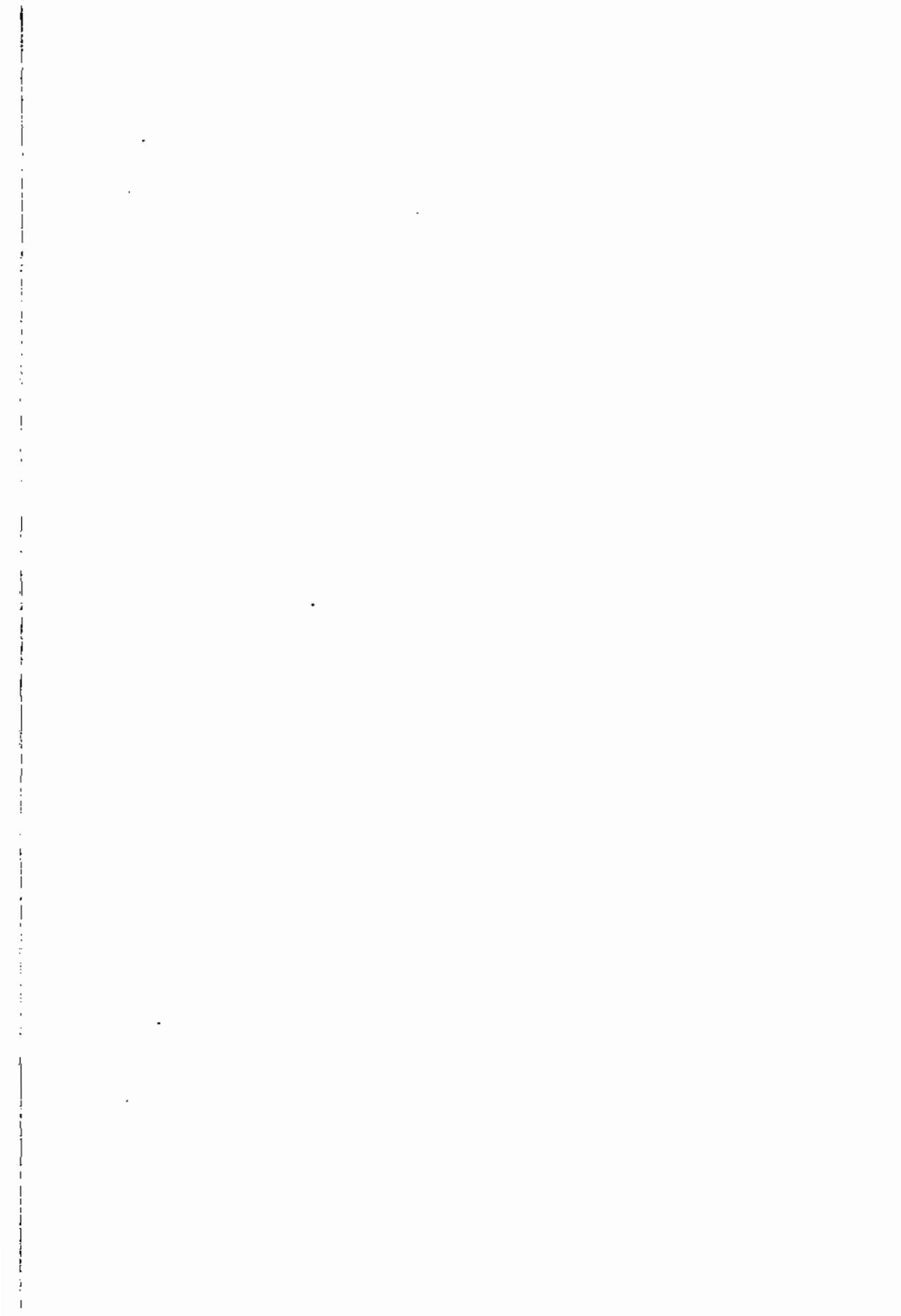
د. سلوى محمود نصر

جامعة الإسكندرية

كلية الآداب

قسم الآثار والدراسات اليونانية الرومانية

١٩٩٥



## المرأة اليونانية هذا المخلوق الضعيف بين الموروث الحضارى وعلماء الطب

سلوى محمود نصر

إنحسر دور المرأة فى المجتمع اليونانى فى العصر الكلاسيكى فى نطاق المنزل والأسرة، فمجتمع اليونان القديمة كان مجتمع رجال بالدرجة الأولى، لم يكن للمرأة فيه دور بارز أو مؤثر بشكل مباشر على أكل تقدير. ومع ذلك فهذا لايعنى أن المجتمع اليونانى خلا تماما من نماذج لشخصيات نسائية قوية ومؤثرة، مثل التى صورها شعراء الملاحم أو كتاب المسرح، ومنها على سبيل المثال لالحصر، أندروماخى، إليكترا، كليتمسترا، ليمستراتى وبراكساجورا، تلك الشخصيات التى لم تكن كلها من صنع خيال هؤلاء الشعراء، فبعض منها كان يعبر عن أنماط لشخصيات نسائية موجودة بالفعل فى داخل هذا المجتمع. ولكن مثل هذه الشخصيات كانت بلا شك تمثل الإستثناء، فى مقابل القاعدة العريضة التى تمثلها المرأة المستكنة ربة العنزل والأم، وهى النموذج الذى تقيم به هذه الدراسة فى المقام الأول، ولتت على الرغم من أن دورها فى هذا المجتمع كانت له حدوده المحسوبة والمعترف بها، إلا أنها كانت من أكثر الموضوعات التى حظيت بدراسات لاحصر لها، كانت تدور فى معظمها، وحتى وقت قريب فى نطاق المنزل والأسرة وتربية الأطفال.

وبالرغم من أن دور المرأة فى هذا المجتمع، كانت له حدوده المحسوبة والمعترف بها، إلا أن موضوع المرأة كان من أكثر الموضوعات التى حظيت بدراسات لا حصر لها، كانت تدور فى معظمها، وحتى وقت قريب، فى نطاق المنزل والأسرة وتربية الأطفال (١).

ولكن العصر الهيلينى كان هو العصر الذى صاحبه تغير ملحوظ فى وضع المرأة اليونانية، التى بدأت فى الإعلان عن تولدها فى الساحة، وأصبح لها دور وكيان لا يمكن إغفاله، سواء على مستوى مجتمعها للصغير الذى تمثله أسرته، أو على مستوى المجتمع الموسع بصفة عامة، حيث مارست المرأة للعديد من الأعمال العامة، وحيث برزت نماذج لنساء فى مجالات متعددة (٢).

ومع ذلك فهذا التخير في وضع المرأة الذي واكب العصر الفيكتوري، لم يأتى نتيجة لتغير مفهوم الرجل تجاه المرأة، ونظرته لها على أنها أضعف من أن يكون لها دور إيجابي في هذا المجتمع، فقد ظل الرجل اليوناني على موقفه المتشدد تجاه المرأة، متأثراً بمفهومه للموروث الحضاري المتأصل فيه. ولكن ظروف العصر الجديد، والمد الحضاري، والإفتتاح على العالم الخارجي، فرضت نفسها، وخصوصاً في مجال التعامل مع الممالك الفيكتورية، التي حفظت بعض مجتمعاتها للمرأة حقوقها وكيانها، سواء على مستوى الحكام أو على مستوى القاعدة، ومثال على ذلك مصر (٣).

وبناء على ذلك فموضوع هذه الدراسة هو عرض لأسباب تخرج عن النطاق التقليدي الذي يمثله الموروث الحضاري في مفهوم الرجل اليوناني المتشدد تجاه المرأة، وهو موضوع لعدد من الدراسات المحدثة، التي اتخذت محورا لها، قضية طبية، ربطت فيما بين تراجع دور المرأة في هذا المجتمع في العصر الكلاسيكي، وبين تكوينها الجسماني والنفسي الأكثر ضعفاً من الرجل (٤).

وجدير بالذكر أن هذه الدراسة تعتمد بشكل كبير على مصدرين أساسيين تناولوا بالتفصيل التشريح الفسيولوجي لجسم المرأة، ومواقع الضعف فيه التي أشار إليها علماء الطب اليوناني، حيث يختص المصدر الأول بأمراض النساء لهيبوكراتيس، وهو عبارة عن مجموعة من الأبحاث العلاجية للنظرية، كتبت فيما بين الربع الأخير من القرن الخامس، ومنتصف القرن الرابع ق.م.، حيث تسبب هذه الأبحاث إلى عدد من المؤلفين، الذين بالرغم من توافقيهم في معظم الأحيان، إلا أنهم كانوا يختلفون في الرأي في بعض القضايا في أحيان أخرى، ولكنهم في النهاية يشكلون كياناً واحداً، خصوصاً في مجال المقارنة مع المصدر الثاني الذي يتعلق بمجموعة أعمال في علم الأحياء لأرسطو، منها على سبيل المثال "Historia Animalium" الذي يعالج فيه أرسطو عدد من الموضوعات التي ترتبط بحياة الحيوانات وتصنيفها، وسلالاتها، وأجزائها العضوية، هذا إلى جانب دراسات أخرى تنتمي إلى نفس المجموعة، منها ما يتعلق بالروح "De Anima" ومنها أيضاً ما يتعلق بتفسير الأحلام، ويرجع تاريخ هذه المجموعة إلى حوالي الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م. (٥).

ولكن قبل المضى فى استعراض بعض أمثلة لما إعتبره هؤلاء العلماء نقاط ضعف فى التكوين الجسمانى، ومن ثم النفسى للمرأة؛ يجدر بى التوقف والتنويه بوضع المرأة من مفهوم هذا الموروث الحضارى وشواهدة، التى منها على سبيل المثال لا الحصر، ما ورد فى ملحمتى الأعمال والأيام، وأنساب الآلهة لهزيودوس، حيث يوضح أن الآلهة خلقت الرجل فى البداية، ثم منحتة المرأة (٦).

النص:

“... θαῦμα δ' ἔχ' ἀθανάτους τε θεοὺς θνητοὺς τ' ἀνθρώπους,  
ὡς εἶδον δόλον αἰπὺν, ἀμήχανον ἀνθρώποισιν.  
[Ἐκ τῆς γὰρ γένος ἐστὶ γυναικῶν θηλυτεράων.] 590  
Τῆς γὰρ ὀλώϊόν ἐστι γένος καὶ φύλα γυναικῶν,....”

وهى القصة التى تردت عبر العصور بشكلها الأسطورى، الذى تحول فيما بعد إلى مضمون دينى كما جاء فى الإسلام على سبيل المثال (٧).

أو كما يوضح هزيودوس فى أنساب الآلهة بالذات، حيث يتحدث عن المرأة على أنها الأثنى والزوجة التى تعيش مع معشر الرجال لتلحق بهم الأذى، فلا نفع لهن مع الناقه، ولكنهن على استعداد للمشاركة فى الثروة، مشبها إياهن بجموع نحل العسل، التى تعمل فيها الشغالات لتمتلى بطون من يتبعون فى المستودع، بإنتاج ومجهود خيرهم، وهكذا النساء فهن وبال على الرجال ومتأمرات فى

المش (٨).

“... πῆμα μέγ' αἰ θνητοῖσι μετ' ἀνδράσι ναιετάουσιν  
οὐλομένης πενίης οὐ σύμφοροι, ἀλλὰ κόροιο·  
ὡς δ' ὀπότ' ἐν σμήνεσσι κατηρεφέεσσι μέλισσαι  
κηφίνας φόσκεισι, κακῶν ξυνήονας ἔργων· 595  
αἰ μὲν τε πρόπαν ἦμαρ ἐς ἡέλιον καταδύντα  
ἡμάπαι σπεύδουσι τιθεῖσσι τε κηρία λευκά,  
οἱ δ' ἔντοσθε μένοντες ἐπηρεφέας κατὰ σίμβλους  
ἀλλότριον κάματον σφετέρην ἐς γαστέρ' ἀμῶνται·  
ὡς δ' αὐτως ἀνδρεσσι κακὸν θνητοῖσι γυναῖκας...” 600

النص:

وفى هذا الصدد، ففكرة خلق المرأة بعد الرجل، تردت فى القصص اليونانى، إلا أنها تراجعت فى فترة ما، أمام مد الفلسفة الطبيعية، التى ظهرت فى منطقة أيوتيا فى القرن السادس ق.م، فى الوقت الذى لم تعد فيه الأساطير بشكل عام تكتفى لإعطاء التفسير المنطقى المقبول لخلق العالم (٩).

هذا من جانب، ومن جانب آخر وفى إطار الحديث عن مضمون الموروث الحضارى اليونانى المتشدد تجاه المرأة، نجد أن هذا المضمون يستند فى الأساس على اختلاف الشكل الخارجى للمواصفات الجسدية فى وضعها المثالى للرجل والمرأة، بحيث تصبح هذه المواصفات المثالية هى النموذج المعتمد، وأى إختلاف عن ذلك يعتبر خروجاً عن القاعدة، التى بموجبها يتم التصنيف، الذى يرتبط إلى حد كبير جداً بالسلوك، ومن ثم يتحدد على أساسه الدور المنوط بكل من الجنسين فى المجتمع اليونانى، حيث حصر دور الرجل فى الخارج المنزل أو المدينة، بينما كان دور المرأة بين جدران المنزل وفى حدود الأسرة، وهو دور لا يمكن بأى حال الإستهانة بأهميته، بل إن المرأة تستطيع من خلاله أن تثبت وجودها وتحقق ذاتها، إذا ما أدته على الوجه الأكمل. وبالرغم من ذلك ظلت وقتنا للمفهوم التقليدى، فى مرتبة أقل من الرجل، تعتمد عليه، ومسئولة منه، وذلك على إعتبار أنها غير قادرة على عدد من الممارسات التى تتطلب مجهوداً عضلياً (١٠).

هذا ونستطيع أن نرى هذا المضمون يتردد عند كسنوفون على لسان بطله إيسخوماخوس، حيث يرى أن الطبيعة قد حددت لكل جنس دوره فى الحياة، وإنه لمن الأوفق أن يلتزم كل منهما بالدور المنوط به، والمجال الوحيد الذى تفرده به المرأة من وجهة نظره، هو حضانتها للمولود، والمحافظة على ممتلكات الأسرة، وهذا فى حد ذاته - حسب قوله - أمر ليس باليسير "οὐ κακίον ἐστὶ" (١١) هذا بالرغم من أن هذه الخاصية الأخيرة، وهى المحافظة على ممتلكات الأسرة، ليست بمستحيلة على إمكانيات الرجل، الذى يستطيع أن ينهض بالمهام المنزلية الأخرى التى تقوم بها المرأة، وبفلسفة القدر من الجودة، بل إن إيسخوماخوس نفسه يبدو فى الموقع الذى يقوم هو فيه بتدريب زوجته على النهوض بأعمال المنزل، وهذا إن دل على شئ، فهو يدل على أن كسنوفون لا يجد غضاضة فى أن يقوم الرجل وقت الحاجة بالمهام المنوطة بالمرأة (١٢).

هذا وفى إطار الحديث عن أهم نقاط الضعف فى جسم المرأة، التى توافق فيها رأى كل من الهيبوقراطيين من جانب وأرسطو من جانب آخر، وعلى الرغم من أننى لست هنا بصدد بحث نقاط الإلتفاق والإختلاف بين الطرفين، فمع ذلك يجب الإشارة على أقل تقدير إلى أنه بالرغم من إختلاف التفاصيل، وطريقة التناول التى إتبعها كل من الطرفين، إلا أن مفهوم الموروث الحضارى اليونانى، كان الأساس المشترك الذى إنطلقا منه، وقادهما لنفس النتيجة التى تتلخص فى كون المرأة مخلوقاً ضعيفاً بطبيعته عن الرجل.

وكما كان الأساس الذي انطلق منه كل من اليبوقراطيين وأرسطوا واحداً، كانت هناك أيضاً بعض المبدئيات التي لم يكن هناك مجالاً للاختلاف فيها بينهما، ومنها على سبيل المثال، قضية اختلاف الشكل الخارجى فيما بين الرجل والمرأة، الذى لا تتضح معالمه إلا عند سن البلوغ، عندما يبدأ كل جنس فى الإعلان عن خصائصه التى تختلف عن الجنس الآخر، وتبدأ الأعضاء المختلفة فى أداء وظائفها، التى على أساسها تحدد نقاط القوة والضعف، علماً بأن البوادى الحقيقية لهذا الاختلاف من المفروض أنها تبدأ فى المرحلة الجنينية (١٣).

أما بالنسبة لنقاط الضعف، فأول وأهم عناصرها من وجهة نظر هؤلاء العلماء، هو ما يختص بقضية الحيض، حيث توصلوا إلى تشخيص موداه، أنه فى سن البلوغ تتسع المسام "ἀραιαί" ليصبح جسم المرأة أسفنجياً وممتلئاً (١٤).

"σπογγώδες ἀραιαί καὶ πλόνες"

وذلك استعداداً لامتصاص الدم الزائد من معدتها، والذى يتحول بدوره - حسب الاعتقاد الذى كان سائداً - من الغذاء المخترن. هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن طبيعة جسم الرجل غير المسامية لا تمتص للسوائل الزائدة فى الجسم، حيث تقوم الغدد بهذه المهمة، التى لا تبدأ فى أداء وظيفتها فى جسم الرجل، إلا بعد أن يكون قد استنزف معظم رصيدة من السوائل فى المجهود العضلى الشديد. وبما أن الأنثى فى مرحلة النضوج الحقيقية، ولا تستطيع أن تطوع جسدها ليقوم بنفس المجهود العضلى الذى يقوم به الرجل، فهى أضعف منه (١٥).

وإذا كانت هذه القاعدة العامة، فهناك بالضرورة استثناء لهذه القاعدة، حيث نجد مثلاً فى عدد من المجتمعات القديمة وعلى رأسها بلاد اليونان، أو حتى فى مجتمعات العصور الوسطى التى عرفت الرق والعبودية، حيث كانت تقوم فيها الإماء بمجهود عضلى كبير، لا يقل بأية حال عن قدرة الرجل إن لم تفقها فى بعض الأحيان.

هذا وفى إطار الحديث عن التأثير السلبى لحيض على الناحية العضوية فى المرأة، نجد أرسطو الذى يرى أن تكافؤ دم البيض هو سبب المباشر فى إعتلال صحة المرأة وشحوبها، وبالتالي فهى تبعد عن الصحة المثالية التى ينتفع بها الرجل (١٦)، بل ويذهب أرسطو إلى أبعد من ذلك، عندما يعقد مقارنة بين المرأة وأنتى الحيوانات، بل ويعتقد أيضاً أنه إذا كان

الذكر عموماً في كل جنس يتفوق فيسيولوجياً على الأنثى، فإن المعدل يكون أكثر ارتفاعاً فيما يخص البشر (١٧).

كان هذا فيما يخص تأثير السلم. للحيض نسبي الناحية العضوية للمرأة، أما فيما يخص الناحية النفسية، حيث يرى هؤلاء العلماء أن جسد المرأة الضعيف بالفطرة يجعل للحيض تأثيراً سلبي على مشاعر المرأة وأدائها الذهني، وإتقانها العقلي، ومن ثم يصبح دورها في المجتمع دور ثانوي محدود (١٨).

وحدث علماء الطب اليونانيين عن قضية الحيض كواحدة من أهم نقاط الضعف في جسم المرأة، لم يتوقف عند حد السليبيات، ولكنه تطرق لعدد من الإيجابيات التي كان أهم محور لها هو العامل الذي جعل من المرأة لازمة لاجتنابها في هذا المجتمع، وهو إمكانية التماسل، وهي وظيفة الحيض كما يرى أرسطو (١٩)، أو مجموعة هيبوكراتيس، الذين يرون أن تخلص جسم المرأة من الأشياء الزائدة عن طريق الحيض مرة كل شهر، لهو كفيلاً بحمايتها من الأمراض، وهو ضمانها الوحيد للتمتع بصحة جيدة (٢٠).

هذا ولا يكتمل الحديث عن التماسل إلا بذكر العضو الأكثر أهمية في جسم المرأة المعنى بهذه الخاصية وهو الرحم، الذي عده علماء الطب اليوناني نقطة للضعف الثانية بعد الحيض عند المرأة، وهو العضو المستنول عن إمتصاص السائل من بقية أجزاء الجسم المسامية الإسفنجية - التي سبقت الإشارة إليها - ثم تفرغها على هيئة دم الحيض، وإذا عجز الرحم عن أداء هذه المهمة، مما يؤدي إلى إحتجاز الدم في جسد المرأة، الذي إذا طال مدة إحتباسه دون سبب وجيه مثل الحمل، من الممكن أن يكون أذى. هذا بالإضافة إلى أن رحم المرأة التي سبق لها الإجاب، تسهل مهمة الحيض الذي يجد طريقة بلا عقبات، مهما كان كমে قليل (٢١).

ولكن السبب الأساسي الذي جعل هؤلاء العلماء يعتبرون الرحم نقطة ضعف في جسم المرأة، هو اعتقادهم بأن الرحم لو لم يرتكز في الجسد بسبب الحمل أو الإنباع المنتظم، فهو يجف ويصبح عرضة للإنبذاب نحو الأعضاء الرطبة في الجسم مثل الكبد أو المثانة أو المستقيم، وتكون إمكانية حركة الرحم أكثر سهولة إذا كانت المدة فارغة، بحيث لا تعترض طريقة (٢٢)، ولذلك فإن الفتيات

الصغيرات والأرامل والنساء اللاتى يفتقدن الإشباع المنتظم، يكن عرضة أكثر من غيرهم لتغير مكان الرحم، الذى يطلق عليه فى هذه الحالة "الرحم الهائم" ويعد أفلاطون أهم من روج لهذه الفكرة فى محاوره تيمايوس (٢٣).

وكما كان الجانب السلبى فى الحيض يتمثل فى إعتلال صحة المرأة وضعفها، كان أيضا الرحم الهائم، الذى اعتبره علماء الطب اليونانى تعليلا مناسباً للعديد من الأمراض التى تعانى منها المرأة، فهو يفتقد المرأة المقدره فى السيطرة على أنوثتها، وذلك على اعتبار أن نظرية الرحم الهائم تعطى الإنطباع انه دون تدخل للرجل بصفته كطبيب أو بصفة المعاشرة، يظل هذا الرحم عامل ضغط على المرأة، يؤثر على حياتها ونفسيتها (٢٤).

الجزئية الثالثة التى اعتبرها علماء الطب اليونانى ضمن نقاط الضعف فى جسم المرأة بعد قضيتى الحيض والرحم، هى الثدي الذى يعد ضمن الغدد، التى يختلف حجمها فيما بين الرجل والمرأة، وبناء على ذلك اعتبر مؤشرا آخر على مدى التراخى الذى إتصف به جسم المرأة (٢٥). والثدى هو أحد الأعضاء التى لا تتضح أوجه الخلاف فيها بين الرجل والمرأة إلا عند سن البلوغ، حين يبرز، بالنسبة للمرأة على وجه الخصوص، وعندما يتكون فيه اللبن، وهو الأمر الذى لا يحدث بالنسبة للرجل، نظرا لطبيعة جسده المحكم. ولكن مكن الضعف فى هذه الغدة بالنسبة للمرأة، كما شخصه علماء الطب اليونانى، يأتى على اعتبار أنه الجزء الذى يجعل المرأة عرضة أكثر من الرجل للتصرف غير العقلانى، وذلك نظرا لأن ثدى المرأة يعتبر من أهم مراكز الشعور بالنسبة لها، الذى يتأجج فيه الدم فى حالة الغضب (٢٦).

يتضح مما سبق أن محاولة علماء الطب اليونانى، إبراز نقاط الضعف فى جسم المرأة، أعطت الواجهة العلمية لمفهوم الموروث الحضارى المتأصل عن ضعف المرأة كمخلوق، يأتى فى المرتبة الثانية بد الرجل. وبالرغم من ذلك فليس من المستبعد أن يكون إحساس هؤلاء العلماء بأهمية المرأة فى هذا المجتمع، من واقع إمتلاكها خاصية التنازل - كما سبق وأوضحت - هى التى دفعتهم الى المبالغة فى إظهار وتجسيم نقاط الضعف فيها، لكبح جماحها ووضعها فى إطار ضيق لا يستطيع منه فككاها، خصوصا لو عرفنا أن تاريخ بلاد اليونان مرت عليه فترات تنرق فيها تعداد

النساء على الرجال، بالذات فى أعقاب الحروب الكبرى، التى كانت تأتى على أعداد كبيرة من الشباب والرجال.

وأما "الن" أن حرصه على الطماء على إثبات هذا المفهوم، هو الذى أوقعهم فى بعض الأحيان فى عدد من الأخطاء، وهو أمر طبيعى ووارد بالقياس لظروف العصر وإمكاناته المتاحة، ولكن البعض قسر ذلك على أنها مغالطات، فقادت إلى الإعتقاد بأنهم كانوا يطوعون معلوماتهم فى طب النساء لخدمة هذا الهدف، والأمثلة على ذلك كثيرة، أنتفى منها مثلا رأى أرسطو فيما يخص عدد الثنايا الموجودة فى جمجمة الرجل، التى تفوق مثلثاتها لدى المرأة، وذلك على إعتبار أن مخ الرجل أكبر حجما من مخ المرأة، ولذلك فهو فى حاجة إلى مزيد من التهوية التى توفرها تلك الثنايا (٢٧). هذه النظرية التى إستمرت حتى إلى عصرنا الحالى، بالرغم من تغير ظروف العصر والإمكانات المتاحة، حيث ساد الإعتقاد أن رأس الرجل أكبر حجما من رأس المرأة، وبالتالي فحجم مخ الرجل يفوق المرأة، ولذلك فهو يتمتع بذكاء أكثر من المرأة. مع أن الثابت أن عدد الثنايا واحد لدى الجنسين. هذا بالإضافة إلى أن أرسطو كان يهتم فيما يخص التشريح الفسيولوجى للمرأة بالجانب النظرى فقط، دون الممارسة العملية أو العلاجية.

مثال آخر من نفس النوعية يسوقه أرسطو أيضا، عندما يذكر أن الرجل لديه عدد أكبر من الأسنان عن المرأة (٢٨)، حيث يربط بين تلك وبين طول عمر الرجل، الذى على حد تفسيره، يكون له القدرة على مضغ الطعام مضغاً جيدا، ومن ثم تكون قدرته على الهضم أفضل. وهو خطأ من جانب أرسطو لأنه من المعروف أن كل جنس يتمتع بنفس عدد الأسنان على الأقل فى البداية (٢٩).

هذا بالنسبة لبعض الأمثلة الخطأ التى وقع فيها أرسطو، أما بالنسبة للهيبيوقراطيين، فمن الممكن أن وقعهم فى عدد من الأخطاء يرجع إلى أنهم كانوا لا يترددون فى الربط بين معلوماتهم عن التشريح الفسيولوجى للحيوانات الثديية والمرأة، بالذات عندما كان يتعذر وجود مثال بشرى حى لديهم أو طالما لم يتوفر لديهم ما يثبت العكس (٣٠).

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فجزء من معلوماته فيما يخص طب النساء كانوا يستقونه من بعض النسوة اللاتي تطوعن بوصف ما يعترين من أعراض، مثلا بسبب عدم ثبات الرحم، وذلك مثل الإحساس بالإختناق "Prinx"، الأمر الذي كان من الممكن أن يؤدي في بعض الأحيان إلى عدم دقة المعلومات، خاصة إذا لم تقترن بالفحص الإكلينيكي.

يتضح مما سبق، مدى تأثير علماء الطب اليوناني بمضيق الموروث الحضاري عن ضعف المرأة، هذا المضمون الذي كان يشكل بالضرورة جانباً كبيراً من كيان هؤلاء العلماء الفكري والوجداني، فجاءت نظرياتهم الطبية عن نقاط ضعف المرأة تكميلاً لهذا المفهوم، ورغبة في استمرار وضع المرأة ودورها المحدد في المجتمع اليوناني على ما هو عليه، فكان هذا هو الإطار الذي تحركوا في حدوده، دون أن تتخذ محاولتهم هذه موقف العداء من المرأة، كما فعل غيرهم من العلماء والمفكرين (٣١).